تأملات في الأدب والحياة

يظهر أن فى الجماهير ميلا شديداً وحنوا على الذين يحتقرونها باعمالهم دون أقوالهم ويظهر أيضا ان الجماهير من عباد القوة دون غيرها . ظاهرة يمكن الاستدلال عليها فى كثير من ظروف الحالات التى تقع تحت اعيننا فى كل يوم ، بل وفى كل آونة .

مستبد يقوم فى أمة من الامم فيقتل حرياتها قتلا ويستولى على الزمام من أمورها عنوة وغصباً ، ويهدر كل يوم من ابنائها دماء ربما كانت أزكى من دمه ، ويعقل منهم عقولا ربما كانت أرجح من عقله ، ثم يغويها بكلمات جوفاء ، كالماضى المجيد الذى نعمل على أحيائه ، و « التراث العظيم الذى نعمل على بعث رفاته » و « ستحاربون منتصرين بعد خمس سنوات فتزلزلون الارض وتحميكم أرواح الاجداد » و « الامبراطورية العظيمة تنتظركم فوق الأرض وملكوت الله فى السماء » . فلا تلبث ان تنقاد متحمسة للذل ، متفانية فى العبودية ، مستميتة فى حب الخضوع والاستكانة .

وصحفى يحاول ان يستغل غفلة الجمهور فيقدم له على صفحة لا أكثر من ورق لامع وصور متقنة ، من فاتنات يرقصن عاريات ، أو فتيان يغازلن فتيات فى عهر وغواية ، أو رواية وقائع ما إن تروى إلا بين أهل الدعارة وكلمات يفزع منها كل انسان عرف قيمة نفسه ، فيندفع الجمهور المحتقر فى نظر هذه الصحف ، الممتهن فى عقليته ومستوى آدابه ، المتهم فى مقدار حكمه على الاشياء وراء هذه الصحف يعضدها لا باعجابه ولا بمديحه ، بل بماله . صحف تعيش على استغلال احط الصفات البشرية ، وتقرض بالربا الفاحش غواية تلقاء ضلالة من الجماهير ، لهى صحف تتهم عقلية قرائها بالفساد ، وتنشر علناً وتحت حماية من القانون صوراً خلقية لم تفكر الحكومات بعد فى صيانة الجماهير من أدوائها العديدة . وانى لاعجب كيف أن حكومة كالحكومة المصرية هيأت قواها بمثل هذه الحملة المبرورة ضد السموم البيضاء التى لا تصيب الا افراداً ولا تقتل إلا مناكيد المجتمع ممن قضى عليهم ضعف العزيمة وفقدوا الشجاعة ، تجيز نشر صحف تنفث سمومها لا فى الافراد بل فى المجموع ، وتعيث فساداً فى الارض

وتقيم سداً فى وجه المصلحين الذين يحاولون رفع المستوى الادبى والعلمى ، اين منه سد الاسكندر ، كلا بل سد يأجوج ومأجوج .

* * *

فى الأدب الحديث جانب من النقص لم أعرف حتى الآن كيف يمكن اصلاحه ، فانى لم اتبين من منازع الادباء حتى اليوم أن هنالك بادرة ترمى الى القضاء على هذا النقص .

أعرف من الادب فى أول ما أعرف منه أنه طريقة فى الوضع تقابلها طريقة فى النقد. أما طريق الوضع فقدقطعنا فيه شوطاً لابأس فيه على وجه الاجمال،وأما طريق النقد فذلك هو النقص الذى لانزال نحسه فى الادب الحديث . هذا فى عصر يقول فيه « كانت » :

« يمكن أن نصف هذا العصر بأنه عصر النقد . النقد الذى اضطر كل شىء الى الخضوع له . فالدين على عرش القداسة ، والقانون على عرش العظمة ،قد حاول كلاهما مرات أن يفلت من الخضوع لهذه الضرورة . غيرانهما بما حاولا فى هذا الشأن قد أقاما فى الاذهان شكا فيما يعضدهما من الأسس والقواعد ،كما أنهما عدما بهذا ،كل ماحبا العقل غيرهما به من الاشياء التى أثبتت قدرتها على الثبات أمام النقد الحر . »

أخرجت منذ أسابيع كتيباً فى مقارنات تاريخية تقليدية سميته « قصة الطوفان وتطورها فى ثلاث مدنيات قديمة هى الاشورية البابلية والعبرانية والمسيحية وانتقالها باللقاح الى المدنية الاسلامية » وأرسلت منها هدايا للصحف والمجلات التى خيل الى أنها تقدر الاطلاع على مثل هذه الابحاث ، فكانت البا كورة أنى أطلعت فى إحدى مجلات العراق على نقد جاء فيه :

« اسماعيل مظهر مغرم بكل مايخالف معتقد الاقوام الذين يعيش فى وسطهم وقد يصيب فى بعض الأحيان فى ما ينكره عليهم (الحمد لله) لكن فى أغلب الاحايين يخطىء الهدف .

ثم قال الكاتب . « وأول ما يشاهد فى مطبوعات دار العصور اغلاط الطبع فانها تسبق جميع المطابع فى هذا الميدان » . ثم قال « ونراه كثيراً ما يجعل بجانب الكلمة الاصطلاحية العربية الكلمة الافرنجية فى حين لا حاجة إلى ذكرها لشيوع معرفتها

لیوپولد فون بوخ

عند الجميع مثل الدين والفلسفة والتأمل والعلم إلى نحوها ، ثم قال ، وكثيرا ما يخطئ الكاتب فى معرفة الألفاظ العربية الاصطلاحية فانه ذكر فى ص١٥ . أنثرو بومورفزم أى الفكرة القائلة بتزويد الله شيئا من الخصائص الانسانية . والمعروف عند السلف (رضى الله عنهم) بهذا المعنى مذهب المشبهة أو التشبيه . وسمى الفلسفة الحسية بالفلسفة الاثباتية . وكيف جاز له أن يسميها اثباتية والحس أساسها والحس كثير الانخداع كما هو مقرر فى علم الطبيعيات ، الى غير ذلك ـ ثم ذكر أنى أخطأت فى تعريب أسماء أعرف أنه يصيب فى تعريبها الا من درس اللغات القديمة وعلى الأخص الاشورية والكلدانية .

وأنى لا أريد أن أناقشه فيما ذهب اليه وعلى الاخص لدى اعتراضه على اصطلاحى ذاتى وموضوعى اللذين أراد ترجمتهما بالذهنى والغرضى على ما قال السلف ، مع أن المقصود منهما فى الفلسفة الحديثة بعيد عما ذهب اليه هذا السلف ، ولا أريد أن أنبهه الى أنى ترجمت اصطلاح أنثرو بومورفزم « بالناسوتية » وأنى أول من ذهبت هذا المذهب فى ترجمتها وأغفل مناقشتى فيها ، ولا أريد أن أقول له إن ترجمت فلسفة كونت Positive Philosophy بالحسية خطأ محض وداهية دهياء على الفلسفة وأهلها ، ولا أريد أن أقول له أنى جريت فى ترجمتها بالاثباتية على قول السلف ، إذ كانوا يقولون فلان جبرى و فلان اثباتى أو مثبتاً ، ولا أريد أن أنبهه ألى أن الفلسفة الاثباتية لا تقوم على الحس وحده بل تعتمد بديا كما تعتمد كل العلوم على « تصور » صحيح يثبته الحس بالتجربة أو المشاهدة ، ولا أريد أن أوجه نظره إلى أنه اتهم أكثر من صحيفة و مطبعة بالأخطاء المطبعية فقال فى جريدة «البلاد» التى يصدرها فى بغداد الاديب الفذ ، روفائيل بطى ، أن اغلاط الطبع تتدفق فيها تدفق السيل العرم. لا أريد أن أنبهه الى شىء من هذا ، بل أريد أن أسأله — بعد أن أسلم جدلا بكل نقوده هذه — أين الموضوع ياأستاذ ؟ كل ما قلت صحيح ! ولكن ما رأيك فى مقدمة الكتاب وفى الموضوع نفسه . ذلك الموضوع الذى لم نرم فيه الى تعريب الالفاظ ولا ترجمة المصطلحات ، بل الى مرمى يعرف الكاتب أنه مهزوم ان ناقشه

هذا ما ينقصنا فى الادب الجديد . طريقة للنقد تتحرر من التقاليد و من التغرض . وقد يسائلنا البعض أين التغرض التى ظهرت عليه فى مجلة لغة العرب

التى ساقت هذا النقد ؟ فنقول له ارجع الى الصفحة المقابلة لهذا النقد والتى نشر فى رأسها نقد جريدة البلاد « الحرة » الفكر لترى فى نهايتها ما يأتى :

الفردوس — مجلة دينية أدبية تاريخية شهرية وستها عشرة أشهر يصدرها القس منسى يوحنا راعى الكنيسة القبطية بملوى — ورد الجزء الاول بحجم الثمن الصغير وفيه ١٦ ص والمجلة مفيدة لمن يريد اصلاح الامة من وجهة الدين وهى الوجهة الحقيقية التى لا يستغنى عنها امرؤ يبغى الفلاح لنفسه ولغيره .

سائل محرر « لغة العرب » ألم يخطىء راعى الكنيسة القبطية بملوى ؟ ألم تعثر فى مجلته على غلطة مطبعية ؟ كلا بالضرورة . وألف كلا .

ooo

يروى عن أمية بن أبى الصلت أنه قال فى شأن وقعة الفيل يذكر الحنيفية دين ابراهيم

إن آيات ربنا باقيات ما يمارى فيهن الا الكفور
خلق الليل والنهار فكل مستبين حسابه مقدور
ثم يجلو النهار رب كريم بمهاة شعاعها منشور
حبس الفيل بالمغمس حتى ظل يحبو كأنه معقور (١)
لازما حلقه الجران كأم قطر من صخر كبكب محدور
حوله من ملوك كندة ابطا ل ملاويث فى الحروب صقور
خلفوه ثم ابذعروا جميعاً كلهم عظم ساقه مكسور
كل دين يوم القيامة عند الله الا دين الحنيفة زور

وقال فى خراب سدوم وقصة لوط :

ثم لوط أخو سدوم أتاها إذ أتاها برشدها وهداها
راودوه عن ضيفه ثم قالوا قد نهيناك ان تقيم قراها
عرض الشيخ عند ذاك بنات كظباء بأجرع ترعاها
غضب القوم عند ذاك وقالوا أيها الشيخ خطبة نأباها
أجمع القوم أمرهم وعجوز خيب الله سعيها ورجاها
ارسل الله عند ذاك عذاباً جعل الأرض سفلها أعلاها
ورماها بحاصب ثم طين ذى حروف مسوم إذ رماها

(١) لعله يشير الى فيل ابرهة الاشرم

وقال يذكر قصة تضحية ابراهيم لابنه اسحق .

ولابراهيم المـــوفى بالنذ ر احتساباً وحامل الاجزال
بكره لم يكن ليصـــبر عنه أو يراه فى معشر أقتال
أبنى انى نذرتك للـــه شحيطاً فاصبر فدى لك حالى
واشدد الصفد لا احيد عن السكين حيد الأسير ذى الاغلال
وله مدية تحايل فى اللحم م حذام حنيـــة كالهلال
بينما يخلع السرابيل عنـــه فكه ربه بكبش جلال
فخذن ذا فارســل ابنك انى للذى قد فعلتما غير قال
والد يتقى وآخر مولو د فطار منه بسمع فعال
ربما تجزع النفوس من الأمـــر له فرجة كحل العقال

ولشعراء النصرانية كثير من مثل هذا الشعر الذى يصوغون فيه روايات دينية فى أحسن حلة . وغالب الظن ان هذا الموضوع لم يعرق فى نقد الشعر العربى من قبل ، فلو توفر عليه أديب ومضى فى مقارنات يستخلص منها معدن هؤلاء الشعراء وهم الذين مثلوا حركة الثقافة بنواحيها فى عصورهم ، كان لنا مجال جديد فى البحث الأدبى له فوائده كما أن له جماله

ويروى على ذكر أمية ابن أبى الصلت أنه عند ما مرض مرضه الذى مات فيه جعل يقول : قد دنا أجلى وهذه المرضة منيتى . وأنا أعلم ان الحنيفية (دين ابراهيم) حق ولكن الشك يداخلنى فى محمد . ولما دنت وفاته أغمى عليه قليلا ثم افاق وهو يقول :

لبيكما لبيكما ها أنذا لديكما

لامال يفديني . ولا عشيرة تنجيني . ثم اغمى عليه أيضاً بعد ساعة حتى ظن من حضره من أهله أنه قد قضى . ثم افاق وهو يقول :

لبيكما لبيكما ها أنذا لديكما

لابرىء فاعتذر . ولا قوى فانتصر . ثم أنه بقى يحدث من عنده ساعة ثم اغمى عليه مثل المرتين الأوليين حتى يئسوا من حياته ، ثم أفاق وهو يقول :

لبيكما لبيكما ها أنذا لديكما

محفوف بالنعم

إن تغفر اللهم تغفر جماً وأى عبد لك الا الما

ثم أقبل على القوم فقال : قد جاء وقتى فكونوا فى اهبتى ، وحدثهم قليلا حتى يئس القوم من مرضه وأنشأ يقول :

كل عيش وان تطاول دهراً منتهى أمره الى أن يزولا
ليتنى كنت قبل ما قد بدا لى فى رؤوس الجبال أرعى الوعولا
فاجعل الموت نصب عينك واحذر غولة الدهر انه للدهر غؤولا

العصور الأسبوعية

تصدر صباح الجمعة

من كل أسبوع

فتح جديد فى عالم الادب